# مجتمع مسلم صوفي في بريطانيا: المعنى في الغرب وللغرب

تايفون أتاي

مراجعة: علي مراد يَل

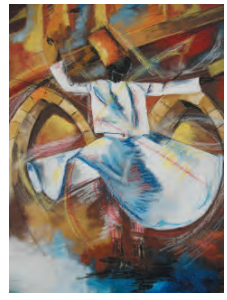

ربما كانت الطريقة النقشبندية إحدى أوسع الأخويات الدينية الإسلامية انتشارًا نظرًا لانخراطها النشط في الشؤون السياسية. تأتي 'قوتها' من كونها قادرة على تتبع سلسلة شيوخها إلى نبي الإسلام عن صاحبه أبي بكر الصديق. تضم سلسلة الطريقة أيضًا بعض أهم الشخصيات في التاريخ الإسلامي، مثل الصحابي الشهير سلمان الفارسي والصوفي الكبير أبي يزيد البسطامي. رغم أهمية الطريقة وامتدادها العالمي، فإن الأعمال المنشورة حول الموضوع لا تكاد تملأ رفًّا صغيرًا بالمكتبة. للطريقة النقشبندية عدد عظيم من الأتباع في تركيا، منهم شخصيات سياسية بارزة. منذ الشاه بهاء الدين نقشبند مؤسس الطريقة والشيوخ الذين خلفوه، أفضت مشيخة الطريقة إلى الشيخ ناظم القبرصي الحقاني، وهو قبرصي تركي. تولى الشيخ مهمّة توسيع مجال الطريقة إلى الغرب، ونتيجة لجهود شاقة استطاع تأسيس بعض المراكز بمختلف المدن الأوروبية والأميركية، وكان أكبرها في لندن. درس مؤلف الكتاب، تايفون أتاي، هذا المركز في سياق إعداد أطروحته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن.

من المؤسف أن هذه الرسالة العلمية المكتوبة بشكل جيّد والغنية إثنوغرافيًا انتظرت طويلًا لكي تنشر باللغة الإنكليزية، مع أنها نشرت بالتركية منذ 1996. أمضى المؤلف عامًا بين تلاميذ ومريدي الشيخ ناظم القبرصي، 1991–1992م. ونتيجة لعمله الميداني من خلال ملاحظة المشاركين، يتعلم القراء الكثير عن المناحي السياسية والثقافية لهذه الجماعة الصوفية في البيئة الغربية. يقضون حياتهم اليومية غالبًا كادحين للتأقلم مع محيطهم، لكن نهج شيخهم المعتدل إزاء هذا العالم يسرت حياة المريدين في بيئة لندن الحديثة. البعد الأخلاقي للتصوف من خلال التدريب والمجاهدة، أو بالأحرى كسر كبرياء الذات أو الأنا، أي النفس، تساعدهم في التغلب على الصعوبات التي قد يواجهونها في حياتهم اليومية. بعد تقديم خلفية من المعلومات حول تاريخ التصوف وإطاره المفاهيمي وسياق نشوء وتطور النقشبندية في التاريخ الإسلامي، تمضي الأطروحة لتصف الجماعة الصوفية وشيخها ناظم القبرصي. يثري المؤلف هذا القسم بمقابلات وقصص الحياة الشخصية لمريدين أتراك وغير أتراك، بل حتى عن الشيخ ذاته. يتيح هذا الأسلوب للقراء أن يسمعوا بشكل حقيقي أصوات الأشخاص في هذا العمل الأنثروبولوجي؛ إنه يضفي حياة على المريدين والشيخ. ويظهر ما لدى المؤلف من صعوبات وقيود وضغوط بسبب خلفيته الشخصية، مما يساعد في تفسير الاستقطاب بالمجتمع التركي بين معسكر علماني وآخر محافظ. بيد أنه طوال عمله البحثي الميداني، يُقِر أتاي أنه توصل إلى قبول وتقدير «سبل الحياة» المختلفة

للنـاس «الآخريـن». ربـما تيسر له هذا التحول بسـبب التنوع الإثني لأتباع الشـيخ القبرصي. وباعتباري أحد الذين خبروا البحث في الثقافات المختلفة، من السـهل تقدير الخطـوات التي اتخذها أتـاي ليصبح منخرطًا في هذه الدراسـة، ولينظر لما وراء اختلافات الأشـخاص (الذاتيـة). هذه القصة الشـخصية وانعكاسـاتها تجعل أطروحـة أتـاي مثـيرة أكثـر للإعجاب، حيـث كان في داخل الدائرة وخارجها في ذات الوقت.

في الفصـل الرابـع نطلع على طقوس وشـعائر هذه الجماعة؛ فشعيرة الذِّكْر موصوفة بتفصيل كبير، مع بيان كيفية اختلافه عن الطرق الصوفية الأخرى وعن فروع النقشـبندية الأخرى أيضًا. يضفـي الذِّكْر على المريدين شـعورًا بالانتماء إلى الطريقة، ويعمل كسبيل للتواصل مع الله بشـكل مباشر، والأهم أنه يميز النقشـبندية عن الطرق الإسلامية الأخرى.

في الفصـول التالية، يبـين أتاي كيـف أن التصوف يضبط حيوات الأفراد في 'عالم حديث' عن طريق إنكار الـذات والإيمان بالآخرة والبعث والحسـاب. توصف جماعة لندن النقشـبندية كحركة دينيـة اجتماعية جديدة بإبرازهـا لفكرة المهدي المنتظر. هـذا المنحى في الجماعة يمكن التعاطي معه بتفصيل أكثر؛ لأنه يساعد المريدين في الاندماج في العالم الحديث بتزويدهم بتوقعات—على غـرار تنبؤات طوائف الألفيـات— تدور حول مُخَلِّص ومستقبل أسـعد. آمال الجماعة في المستقبل (خاصة بين المريدين الأتراك) تجعلهم مشـتبكين في خطاب سياسي يهدف إلى تغيير منحى الجمهورية التركية العلماني آنذاك (1991–1992) إلى موقف أكثر قبولًا لدى المسلمين المحافظين في تركيا. يتناول الكتاب أيضًا الخصومة بين الصوفيـة والوهابيـة، والأخـيرة حركة سـلفية ظهرت بالجزيـرة العربية أواخـر القرن الثامن عـشر. كما نفهم مـن النص، الشـيخ وأتباعه لا يكفون عـن الدفاع عن أنفسـهم ضـد اتهامـات (متخيلـة أو حقيقيـة) من قبل الوهابيـين بأنهم ابتدعـوا بدعًا في الإسـلام، وهو محرم بشكل صارم.

تعكس الأطروحة قطعًا الحاجة إلى دراسات مفصلة حـول الجماعـات؛ لأجـل فهـم «التحريفـات الحديثة» حول المسلمين—بشـكل خاص كوسيلة لتقويم أسئلة حـول مـا إذا كان المسـلمون قادريـن عـلى التكيف مع الحداثة (الأفكار الغربيـة حول الديمقراطية والتعددية الثقافيـة وغيرهـا)، خاصـة في عـالم شـهد صدمـة 11 سـبتمبر/ أيلول 2001. هذا الكتاب سيساهم قطعًا في فهم عالم حياة المسـلمين بينما هم يخوضون بدينهم حالة العولمة والتغريب المتسعة باستمرار (كما يقترح العنوان الفرعـي للكتـاب). بيـد أن المؤلـف ذاته يقر بـأن هذا العمـل العلمي كان يمكن أن يكون أشـمل في دراسـة أدوار النوع (الجنس) ضمن هذه الجماعة. كان يستطيع أن يتوسـع بسـهولة حـول هـذا الموضـوع، نظـرًا لأن الشـيخ يتسـامح مع ممارسـة التجمعات المختلطة أكثر مـن المعتـاد، خاصة لـدى المقارنة مع الطـرق الصوفية في الإسـلام التي تأمـر بالفصل الصارم بين الجنسـين. لكنـه قصور نجده في أعـمال أنثروبولوجية كثيرة حول الإسـلام، فهـي تفتقد دائـمًا الإثنوغرافيـا حول الجنس المغاير لجنس الباحث القائم بالعمل الميداني. لكن تظل هـذه الأطروحـة عملًا مهـمًّا، وإن كانت مجرد مسـاهمة تمهيدية، وسـيكون من الأفضل إضافة قسـم فهرسـت بالموضوعـات والأعـلام والأماكـن في نهايـة الكتاب. يؤمل أن يشـجع هذا الكتاب الباحثين في المستقبل تجاه العمل على دراسة مقارنة بين مختلف حركات التصوف ومختلف الحركات الدينية الاجتماعية في العالم الحديث، حيث لا يزال الشـيخ ناظم القبرصي يؤثر في العالم غير الإسلامي من خلال تدخلاته الملهمة—كما شوهدت في دعمه الروحي لعمال منجم في تشيلي خلال احتجازهم لأكثر من شهرين تحت الأنقاض بعد حادث انهيار.■